**الدولة العظمى يبنيها رجال عظام**

عبدالستار المرسومي

الدُّوَلُ تقوم على أكتاف الرجال، والسياسة المتميزة الناجحة صنعة يحترفها المفكرون والمتميزون والمبدعون منهم، وعلى الرغم من استمرار سرية الدعوة، والمسلمون مختبئون في دار الأرقم - رضى الله عنه -، فإن النبي محمد - صلى الله عليه وسلم - ينظر إلى المستقبل وإلى رجال المستقبل.

كان يحيط برسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنواع فريدة من الرجال، ولكن رغم كل ذلك فإنه كان يطمع برجال آخرين بمواصفات خاصة جداً، وعلى درجة عالية من التميز، وخاصة وهو - صلى الله عليه وسلم - على وشك أن يعلن دعوته، ومن المتوقع أن تشرأب أعناق الأعداء ويكشرون عن أنيابهم لحرب متنوعة القضايا، وربما كانت طويلة الأمد عميقة الجراح.

لقد كانت عين رسول الله - صلى الله عليه وسلم - على رجال من أمثال عمر بن الخطاب - رضى الله عنه -، بل كانت عينه - صلى الله عليه وسلم - على عمر - رضى الله عنه - تحديداً، فهو ذلك النوع المطلوب والمرغوب فيه، هو رجل من العيار الثقيل، لا غنى لدولة المستقبل عنه - رضى الله عنه.

وحسب دراسة تاريخ عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - قبل الإسلام، فمن المتوقع إن حدثَ وأسلم - رضى الله عنه - فأنه سيقدم لدولة الإسلام الشيء الكثير، وتحدث عليه يديه إنجازات إبداعية غير مسبوقة.

فإن كان من دعوة يتوجه بها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى الله - سبحانه - ليعز الإسلام برجل، فليس غير عمر بن الخطاب - رضى الله عنه -، فيقول النبي محمد - صلى الله عليه وسلم -، يقول: " اللهم أعزَّ الإسلام بعمر بن الخطاب خاصة "[1].

فما الذي كان يراه رسول الله محمد - صلى الله عليه وسلم -، كقائد للمسيرة، بنظره الثاقب وبصيرته الحاضرة في عمر بن الخطاب - رضى الله عنه -؟

وسنبحث في التحليل السياسي للحديث فيما كان في عمر - رضى الله عنه -، من مواصفات خاصة فنتوصل إلى ما يأتي:

1- قوة عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - في الحق وعدم المجاملة على حسابه، وعدم تردده في اتخاذ قرارات استراتيجية كبيرة ومصيرية، ولقد اتضح ذلك من أول ما أسلم في دار الأرقم بن أبي الأرقم - رضى الله عنه -، فلم يَدُم الأمر كثيراً حتى صار عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - يطالب النبي -صلى الله عليه وسلم- أن يجهروا بالدعوة لأنهم على الحق وعدوهم على باطل.

ثم إنه - رضى الله عنه - قال لرسول الله: - صلى الله عليه وسلم- " يا رسول الله إني لا أدع مجلساً جلسته في الكفر إلا أعلنت فيه الإسلام، فأتى المسجد وفيه بطون قريش متحلقة، فجعل يعلن الإسلام ويشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فثار المشركون فجعلوا يضربونه ويضربهم، فلما تكاثروا خلصه رجل"[2]، ففي ذلك دلالة على قوته في الحق.

2- رجاحة عقله وأفكاره الإبداعية الخلاقة التي لا تنتهي، وفي كل المجالات، السياسية والحربية والتنموية والقضائية والاقتصادية والتربوية والاجتماعية، مما سيساهم مستقبلاً في دعم أسس البناء والتنمية والتطوير في الدولة الإسلامية، فعن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، عن النبي - صلى الله عليه وسلم -، أنه كان يقول: " قد كان يكون في الأمم قبلكم محدَّثون[3]، فإن يكن في أمتي منهم أحد، فإن عمر بن الخطاب منهم"[4]، كما كان عمر - رضى الله عنه - قوي الفراسة صادق الحدس.

3- سمو روحه وعزة نفسه - رضى الله عنه - وعزوفها عن الدنيا وما فيها، فيقول خادمه يسار بن نمير: "والله ما نخلت لعمر الدقيق قط إلا وأنا له عاصٍ "[5].

وهذا الزهد سيجعله لا يأبه بالأموال فلا يفكر في استغلال موارد الدولة ومقدراتها لمصالحه الشخصية أو مصالح أفراد عائلته.

4- هو من الذين لهم صيت ومكانة في قريش، بل كان من سفرائها، لأنه من عَدي وقد كانت السفارة فيهم، فإسلامه يغيض الأعداء من قريش وغيرها ويشتت تفكيرهم ويخذلهم ويشغلهم به عن الضعفاء.

5- منح أتباع النبي محمد - صلى الله عليه وسلم - قوة إضافية وفرصة لمزيد من الثقة بأنفسهم، فضلاً عن مراجعة أنفسهم وسعيهم ليكونوا كعمر بن الخطاب - رضى الله عنه -، كنموذج فريد من نوعه.

6- تقديم درس للأمة القادمة من أجل أن تعتمد في سياستها أن تكسب رجالاً أفذاذاً من طراز عمر بن الخطاب - رضى الله عنه -.

هذه هي الدواعي الرئيسية لدعوة رسول الله محمد - صلى الله عليه وسلم - لإسلام عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - وتغيير مسار الصراع.

فهل كانت الرؤية السياسية لرسول الله محمد -صلى الله عليه وسلم- في عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - صحيحة؟

الإجابة عن هذا التساؤل في معرفة ما قدمه عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - للإسلام.

إنجازات عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - لترسيخ مفهوم الدولة:

1- مَنَحَ إسلام عمر - رضى الله عنه - للمسلمين مباشرة دعماً وعوناً وقوة، قال عبدالله بن مسعود - رضى الله عنه - "مازلنا أعزةً منذ أسلم عمر"[6]، بل وأكثر من ذلك، يقول عبد الله بن مسعود - رضى الله عنه -: "والله ما استطعنا أن نصلي عند الكعبة ظاهرين حتى أسلم عمر"[7].

ويكمل الصحابي عبدالله بن مسعود - رضى الله عنه - الموضوع بقوله: "إن إسلام عمر كان فتحاً، وإن هجرته كانت نصراً، وإن إمارته كانت رحمةً، ولقد كنا وما نصلي عند الكعبة حتى أسلم عمر، فلما أسلم عمر قاتل قريشاً حتى صلى عند الكعبة وصلينا معه"[8].

2- كان - رضى الله عنه - مستشاراً أميناً للنبي محمد -صلى الله عليه وسلم- منذ إسلامه وحتى وفاة الرسول - صلى الله عليه وسلم -، ثم استمر الحال كمستشار أمين لخليفة الرسول - صلى الله عليه وسلم - أبي بكر الصديق - رضى الله عنه -، وقدم استشارات عظيمة وقيمة، منها ما غير تجاه التفكير السياسي في بعض الإجراءات، ومن ذلك:

• ما حصل في موضوع أسرى غزوة بدر حين كان توجه ورغبة رسول محمد - صلى الله عليه وسلم - ومعه أبو بكر الصديق تجاه فداء الأسرى، وقد حصل ذلك، في حين كان عمر - رضى الله عنه - يرى قتلهم، فجاء القرآن الكريم مؤيداً لرأي عمر بن الخطاب - رضى الله عنه -، بقوله تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [الأنفال: 67].

• تقديم المشورة لأمير المؤمنين أبي بكر الصديق - رضى الله عنه -، لإجراء عملية توثيق لدستور المسلمين (القرآن الكريم)، وهو ما يُعرف بقضية جمع القرآن، بعد إن كان يحفظ في قلوب الرجال، وهذا الإنجاز يعتبر من أعظم الإنجازات التي تحققت في مراحل بناء الدولة الإسلامية على مر التاريخ، وربما على مستوى تاريخ العالم السياسي، وهو يحسب لعمر بن الخطاب - رضى الله عنه.

"عن زيد بن ثابت الأنصاري - رضى الله عنه - وكان ممن يكتب الوحي- قال: أرسل إليَّ أبو بكر مقتل أهل اليمامة وعنده عمر، فقال أبو بكر: إن عمر أتاني، فقال: إن القتل قد استحر يوم اليمامة بالناس، وإني أخشى أن يستحر القتل بالقراء في المواطن، فيذهب كثير من القرآن إلا أن تجمعوه، وإني لأرى أن تجمع القرآن "، قال أبو بكر: قلت لعمر: "كيف أفعل شيئاً لم يفعله رسول الله - صلى الله عليه وسلم -؟ " فقال عمر: هو والله خير، فلم يزل عمر يُراجعني فيه حتى شرح الله لذلك صدري، ورأيت الذي رأى عمر، قال زيد بن ثاب: وعمر عنده جالس لا يتكلم، فقال أبو بكر: إنك رجل شاب عاقل، ولا نتهمك، كنت تكتب الوحي لرسول الله - صلى الله عليه وسلم -، فتتبع القرآن فاجمعه، فوالله لو كلفني نقل جبل من الجبال ما كان أثقل علي مما أمرني به من جمع القرآن، قلت: " كيف تفعلان شيئاً لم يفعله النبي - صلى الله عليه وسلم -؟ "فقال أبو بكر: هو والله خير، فلم أزل أراجعه حتى شرح الله صدري للذي شرح الله له صدر أبي بكر وعمر، فقمت فتتبعت القرآن أجمعه من الرقاع والأكتاف، والعسب وصدور الرجال، حتى وجدت من سورة التوبة آيتين مع خزيمة الأنصاري لم أجدهما مع أحد غيره، لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم إلى آخرهما، وكانت الصحف التي جمع فيها القرآن عند أبي بكر حتى توفاه الله، ثم عند عمر حتى توفاه الله، ثم عند حفصة بنت عمر"[9].

• ومن عمله كمستشار لأبي بكر الصديق - رضى الله عنه - أُقر ما قال به عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - باعتبار رئيس الدولة موظف فيها، وعليه القيام بواجباته على أتم وجه، وأن يترك أمور التجارة أو أي عمل آخر يشغله عن أداء واجبات هذه الوظيفة، و يُخصص له راتب مجزٍ من بيت المال مقابل ذلك.

عن محمد بن سيرين رحمه الله قال: "توفي أبو بكر الصديق وعليه ستة آلاف كان أخذها من بيت المال، فلما حضرته الوفاة قال: "إن عمر لم يدعني حتى أصبت من بيت المال ستة آلاف درهم، وإن حائطي الذي بمكان كذا وكذا فيها"، فلما توفي ذكر ذلك لعمر فقال: "يرحم الله أبا بكر، لقد أحب أن لا يدع لأحد بعده مقالاً، وأنا والي الأمر من بعده، وقد رددتها عليكم"[10].

نعم لقد أعاد أبو بكر الصديق - رضى الله عنه - ما أخذ من رواتب من بيت المال قبل وفاته، إلا أنه كسياق عمل إداري أقر وعمل به فيما بعد.

ثم يشاء الله - سبحان الله تعالى - أن يكون عمر بن الخطاب - صلى الله عليه وسلم - هو أمير المؤمنين، ويتولى عمر - صلى الله عليه وسلم - زمام قيادة ورئاسة الدولة الإسلامية، فلم يتوانَ في الاستمرار في ترسيخ قواعد وأسس بناء الدولة على نهج النبوة، فمن إنجازاته:

1- إنجازات سياسية:

فمن المعروف أن أحد مقومات قيام الدول هي الأرض، وتزداد هيبة الدولة وقوتها وقيمتها باتساع الأراضي التي تكون تحت سيطرتها.

ولقد كان لعمر بن الخطاب - رضى الله عنه - الدور الأكبر في ذلك، فقد اتسعت رقعت الأرض التي تحت سلطان الدولة الإسلامية، بما تحقق من فتوحات عظيمة في عهده - رضى الله عنه - ومنها:

• فتح العراق.

• فتح مصر.

• فتح الشام بما فيها فتح فلسطين وتحرير بيت المقدس.

وكان هذا الإنجاز إنجازاً سياسياً متميزاً وكبيراً، كما أن هذه الفتوحات جاءت نتيجة معارك ضارية وشرسة استطاع المسلمون الانتصار فيها، وبطبيعة الحال فإن الفضل في ذلك بعد الله - سبحان الله تعالى - ينسب للقيادة الحكيمة التي على هرم السلطة.

2- إنجازات إدارية:

فقد نظم عمر بن الخطاب - رضى الله عنه -، العمل الإداري في الدولة الإسلامية بالاتجاه المؤسساتي، فمن تلك الإنجازات:

• إنشاء الدواوين: حيث عمل ديواناً للجند، وديواناً للمال، وديواناً لحفظ الوثائق، وعين عليها موظفين دائميين يحدثونها ويراقبونها باستمرار، يقول الماوردي رحمه الله: (وأول من وضع الديوان في الإسلام عمر بن الخطاب)[11].

• تشريع بعض القوانين الخاصة بالجند: متمثلة بتفرغهم للعمل العسكري وخاصة أولئك الذين في الثغور، ووضع الأساليب الإدارية اللازمة لتنظيم إجازاتهم وعودتهم لأهليهم، حيث (( أن عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - خرج ليلة يحرس الناس، فمر بامرأة وهي في بيتها وهي تقول:

تطاول هذا الليل واسود جانبه

فوالله لولا خشية الله وحده

وطالَ عليَّ أن لا خليلَ ألاعبُه

لحرك من هذا السرير جوانبُه

فلما أصبح عمر - رضى الله عنه - أرسل إلى المرأة، فسأل عنها، فقيل: هذه فلانة بنت فلان، وزوجها غازٍ في سبيل الله، فأرسل إليها امرأة، فقال: كوني معها حتى يأتي زوجها، وكتب إلى زوجها، فأقفله، ثم ذهب إلى حفصة بنته، فقال لها: "يا بنية، كم تصبر المرأة عن زوجها؟ " فقالت له: يا أبه، يغفر الله لك أمثلك يسأل مثلي عن هذا؟ فقال لها: "إنه لولا أنه شيء أريد أن أنظر فيه للرعية، ما سألتك عن هذا"، قالت: أربعة أشهر، أو خمسة أشهر، أو ستة أشهر، فقال عمر: "يغزو الناس يسيرون شهراً ذاهبين ويكونون في غزوهم أربعة أشهر، ويقفلون شهراً"، فوقَّت ذلك للناس من سنتهم في غزوهم))[12].

3- إنجازات اجتماعية؛ ومن ذلك:

• الأمر بقانون الضمان الاجتماعي، وجعله يسري على جميع الرعايا داخل حدود الدولة الإسلامية وليس للمسلمين فحسب، فقد كتب عمر بن عبد العزيز رحمه الله إلى بعض عماله كتاباً جاء فيه: "أما بعد، فإن الله - سبحان الله تعالى - إنما أمر أن تؤخذ الجزية ممن رغب عن الإسلام واختار الكفر عتياً وخسرانا مبيناً، فضع الجزية على من أطاق حملها وخل بينهم وبين عمارة الأرض، فإن في ذلك صلاحاً لمعاش المسلمين وقوة على عدوهم، وانظر من قبلك من أهل الذمة قد كبرت سنه، وضعفت قوته، وولت عنه المكاسب، فأجر عليه من بيت مال المسلمين ما يصلحه، فلو أن رجلاً من المسلمين كان له مملوك كبرت سنه وضعفت قوته وولت عنه المكاسب كان من الحق عليه أن يقوته حتى يفرق بينهما موت أو عتق، وذلك أنه بلغني أن أمير المؤمنين عمر مر بشيخ من أهل الذمة يسأل على أبواب الناس، فقال: "ما أنصفناك، إن كنا أخذنا منك الجزية في شبيبتك، ثم ضيَّعناك في كِبَرك"، قال: ثم أجرى عليه من بيت المال ما يُصلحه"[13].

• استثمار طاقات المرأة في بعض المهام والتكاليف، لأن الإسلام قد أعاد لها اعتبارها، ووضعها في مكانها الأمثل، فهي في نظر السياسة في الإسلام جزء مهم من مكونات المجتمع ولا بد من أن تشارك في بناء الدولة من خلال ما تكلف به من أعمال.

وقد ولّى عمر - رضى الله عنه - الشفاء بنت عبد الله[14] رضي الله عنها أمر السوق ومراقبته وتقديم الرأي والمشورة لأمير المؤمنين عمر- رضى الله عنه.

• العمل بنظام الرقابة (الحسبة)، بشقيها الوقائي و العلاجي، وعلى مستوى الأفراد والمؤسسات، ويتشدد في ذلك من أجل المصلحة العامة، وكان - رضى الله عنه - يباشر هذا النوع من العمل بنفسه ويكلف الآخرين به.

4- إنجازات قضائية:

فلقد اهتم عمر - رضى الله عنه - بالقضاء لأن فيه حياة الناس ورأى أن تداخل القضاء مع الإدارة السياسية والرئاسة أمر قد يجر البلد إلى ما لا يُحمد عقابه.

ومن أجل لا تتداخل الوظائف، ولا يُسخَّر القضاء ليكون مطية للسياسة، كان تحقيق مبدأ فصل السلطات القضائية عن السلطات التنفيذية، فقد جعل عمر - رضى الله عنه - (القاضي غير الوالي)، ((جعل عمر - رضى الله عنه - القاضي غير الوالي في بعض الولايات؛ لظروف وأحوال معينة، فكان أول من دفعه من الوالي إلى غيره وفوضه فيه، فولى أبا الدرداء معه بالمدينة قاضياً، وولى شريحاً وقيل: كعب بن سورة قضاء البصرة، وكان واليها أبا موسى الأشعري، وولى أبا موسى الأشعري وقيل: شريحاً قضاء الكوفة، وكان واليها المغيرة بن شعبة، وكانت أحكام هؤلاء القضاة ملزمة ونهائية، وواجبة التنفيذ من قبل الولاة، مما يؤكد استقلالية القضاء في تلك البلدان، ولم يكن الفصل للسلطة القضائية شاملاً لجميع الولايات؛ لأن فصل السلطة القضائية عن التنفيذية لم يكن معروفاً بعد لعدم بروز الحاجة إليه، وعندما رأى عمر - رضى الله عنه - الحاجة في بعض الولايات لذلك جعل القاضي غير الوالي، ويعتبر ذلك بداية لفصل السلطة القضائية عن التنفيذية في الدولة الإسلامية))[15].

5- إنجازات تنموية؛ ومن ذلك:

• أمر عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - ببناء العديد من المدن الجديدة في بعض أرجاء الدولة الإسلامية ومن هذه المدن:

♦ البصرة والكوفة في العراق.

♦ الفسطاط في مصر.

ومعلوم مدى فائدة بناء المدن الجديدة في تثبيت أركان الدولة، وما يتبعها من إنشاء لمشاريع الخدمات من أجل تقدم البلد، وكذلك فإن ذلك سيضمن توفير فرص العمل وتشغيل الأيدي العاملة، وما يتبعها من البناء الاجتماعي النموذجي السليم، وما يتبع ذلك من تقليل مستويات الجريمة في المجتمع.

• "في عمرته سنة سبع عشرة من الهجرة كلمه أهل المياه في الطريق أن يبنوا بيوتاً فيما بين مكة والمدينة لم تكن قبل ذلك، فأذن لهم واشترط عليهم أن ابن السبيل أحق بالماء والظل"[16].

• حث عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - الناس على استثمار أموال اليتامى، وفي ذلك العديد من الفوائد التنموية كتشغيل الأيدي العاملة، وتحريك رؤوس الأموال، وتنمية الأموال الخاصة باليتامى كونها أمانة، حيث يقول عمر - رضى الله عنه -: " ابتغوا في أموال اليتامى قبل أن تأكلها الزكاة "[17].

لقد كان عمر - رضى الله عنه - رجل يعدل أمة، رجل دولة من طراز فريد، وفارس لا يشق له غبار، ومفكر ينطق بالحكمة والحق، فعن أبي ذر - رضى الله عنه -، قال: "سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم - يقول: " إن الله وضع الحق على لسان عمر يقول به "[18].

[1] صحيح ابن حبان - كتاب إخباره - صلى الله عليه وسلم - عن مناقب الصحابة، وسنن ابن ماجه - المقدمة - باب في فضائل أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فضل عمر - رضى الله عنه.

[2] المعجم الأوسط للطبراني - باب الألف - من اسمه أحمد.

[3] محدثون: ملهمون يوافق قولهم مراد الله.

[4] صحيح مسلم - كتاب فضائل الصحابة رضي الله تعالى عنهم- باب من فضائل عمر- رضى الله عنه.

[5] الطبقات الكبرى لابن سعد- طبقات البدريين من المهاجرين.

[6] صحيح البخاري - كتاب المناقب - باب مناقب عمر بن الخطاب- رضى الله عنه.

[7] المستدرك على الصحيحين للحاكم - كتاب معرفة الصحابة رضي الله عنهم.

[8] صحيح السيرة النبوية، محمد ناصر الدين الألباني. ج1، صفحة

[9] صحيح البخاري - كتاب تفسير القرآن - سورة البقرة.

[10] الطبقات الكبرى لابن سعد - طبقات البدريين من المهاجرين.

[11] الأحكام السلطانية، للماوردي، ص 226.

[12] سنن سعيد بن منصور - كتاب الجهاد- باب الغازي يطيل الغيبة عن أهله.

[13] الأموال للقاسم بن سلام، كتاب سنن الفيء - باب اجتباء الجزية والخراج.

[14] قال ابن حجر العسقلاني رحمه الله في الإصابة: الشفاء بنت عبدالله بن عبد شمس بن خلف القرشية العدوية، أسلمت قبل الهجرة، وهي من المهاجرات الأول، وكان عمر يقدمها في الرأي، ويرعاها، ويفضلها، وربما ولاها شيئاً من أمر السوق.

[15] الإسلام والدستور، توفيق بن عبد العزيز السديري، صفحة 171.

[16] الأحكام السلطانية، الماوردي، صفحة 251.

[17] مصنف عبد الرزاق الصنعاني - كتاب الزكاة - باب صدقة مال اليتيم والالتماس فيه وإعطاء زكاته.

[18] سنن ابن ماجه - المقدمة - باب في فضائل أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فضل عمر - رضى الله عنه.